"وردة للوقت المغربي"

لأحمد المديني

سمير أبو حمدان

لهفي على المغرب وأهله من راوٍ ينفخُ عَضَلَه ويبغي قلْب الطاولة على من حولها. نريد أن نغرِّب إذن. أن نتّجه مغرباً لنلتقي مرةً أخرى بأحد كتّابه القساة، العتاة، المشمّرين دائماً عن سواعدهم لنصرة الحق وزهق الباطل. إنه أحمد المديني في روايته «وردة للوقت المغربي» (*).

قلتُ: لهفي على المغرب وأهله. فالكاتب أحمد المديني (شبهُ اسمه نجده كثيراً بين أصحاب الطرق الصوفية هناك) أرادَها صيحةً مخمورةً في وجه الظُلاَّم وقساة القلوب والحاكمين الذين أضاعوا ماء الوجه فَطَلسوا وجوههم بالوحل.

وإذ نتكلم على المغرب وأهله أفَلا يحقّ لنا، بينما نهمّ بتفكيك الأفخاخ المنصوبة لنا في هذه الرواية الشقية، أن نسأل: أيُّ مغربٍ سدَّد إليه أحمدُ المديني سهامه؟ أهوَ المغربُ العربيُّ الكبير؟ أم هي الرقعةُ العربية المترامية الأطراف، بخيَمها ومضاربها ونوقها وحريمها وأباعرها (جمع بعير) والتي (تتغرَّب) كل يوم عما هو اصيلٌ وجديرٌ وفخم؟

ليكن ما يكون من أمر هذا الكاتبِ المغربيّ الذي يلتذُّ بأن يصفعنا صفعاً، ما دامت القتامة تتوزعُ، بالعدلِ، على صحارينا ووهادنا وجبالنا، سواءً بشقّنا المغربي أو بالآخر المشرقيّ. فكلنا في الهمّ شرقٌ مثلما ردَّد دائماً أميرُ الشعراء أحمد شوقي. وإذا الهمُّ في زمن هذا (الأمير) كان يتوزَّعُ فيما بين القلبِ والعقلِ فانه، تمدَّد أيضاً إلى العضلِ فأحالَ جسومَنا إلى ما يشبه الجثث الملقوحة بغير دفن! هوذا أمرنا يا أحمد المديني. إنه أمرٌ من الصبر. لكنْ ما يهوِّن علينا، ويجب أن يهوِّن عليك، أن ثمة شيئاً سمّوه، تجوُّزاً، الموت، وأملُنا أن يضعَ حدّاً حاسماً ونهائياً لمأساتنا ومأساتك.

* * *

بعد هذا سوف ننعطف قليلاً نحو ما لا يسّر. نحن وجهاً لوجه مع خطابٍ روائيٍّ خلوٍ من أي إمتاعٍ ومؤانسة. يرفضُ أن يكون حديثَ أنسٍ وسمر، بل يحلو له أن ينشر على الأشياء برقعاً من قتامةٍ وجواً كالحاً بحيث نظنّ، في وهلةٍ أولى، أن الشمسَ انخسفت ولم يعُد يتبدَّى للعيون غير ملامحٍ نَجَفَها التآكلُ والاهتراء. في ظل هذه القتامة أو انخساف الشمس تغدو الأشياءُ على قدرٍ من الاستواء والتوازي. تتخذ حجوماً متوازية. إنه الزمنُ ذو البُعد الواحد يُحيل البشرَ إلى كائناتٍ بدائيةٍ تعمل وَفق قانونٍ سنَّته الطبيعةُ الأولى: زاد يقيم الأود، وتناكح يضاعف النسل وعقليةٍ تضطهدُ العقلَ وتلغيه. والنتيجةُ ارتفاعٌ في وتيرة الشخير الذي يمزّق طبلة الأذن ويطغى على ما عداه من أصواتٍ ترغب في أن تزّف بُشرى بغدٍ أفضل ممتلىء إشراقاً.

إن حالةَ الأستواء، ويمكن أن نُطلق عليها لقباً آخر هو الإجماع سواء في النظَر إلى الكون أو في السبيل إلى تحقيقِ الذات، سوف تؤدي إلى غربةٍ قاتلةٍ ومدمرة يحياها أناسٌ ذوو ألباب يشخصون ـ في دأبٍ لا ينقطع ـ نحو إيقاظ الملكات الهاجعةِ في القعر من الكائن الفرد. وإذا أردنا تعداداً لهذه الملكات فإنها تبدأ في أن يمتلك مثلُ هذا الكائن حقَّ تقرير مصيره، وأيضاً الحقَّ في أن يدحر قوى الخرافة التي امتدَّ نفوذُها ليطول العقلَ والذهنَ والنظر إلى الآخر.

(*) منشورات دار الكلمة ـ بيروت.

إن أحمد المديني الذي استساغَ العملَ من ضمن الآليّةِ اللغويّة الصوفيّة يسعى إلى جعل الرمز والمُرمَز إليه شيئاً واحداً. كأنّي به أراد أن يتمثّل كراماتٍ أدّعاها الحلاجُ القائل بأن «الله في هذه الجبة». هو الحلولُ في الخالق وحلول الخالق فيه، لا فرق. الرمزُ يصبح نفسَه، المُرمَز إليه. ولأنّ الكاتبَ ذو صوفيةٍ مغايرةٍ فإنه لا يبحثُ في هذا المعنى من الحُلول أو التماهي. الخطابُ الصوفيُّ، هنا، لا يهدفُ إلى تحديدِ العلاقةِ بين الإنسان وربه، وإنما إلى نظرٍ في تلك الرابطةِ المقدسةِ (رغم ما يعتورها من عهرٍ وفجور) بين الحاكم والمحكوم. فنحن نرى إلى الكاتب وهو يصوِّر لنا الطَّوْر الذي بَلَغه حلولُ الواحد في الآخر. لكنْ مثل هذا الحلول لا يصنعه فريقان متكافئان، لا يصنعه حوارٌ حضاريٌّ بين الاثنين، وإنما تلك الآلةُ القمعيةُ التي تضربُ بغير رحمةٍ والتي يملكها (أو يَرِثها) الحاكم. من هنا، كما أرغب في أن أرى، لجوء الرواية إلى ما يمكن أن نسمّيه قصيدة النثر. فما دام أن الأمر، والحالُ هذه، لا يقبلُ الكلامَ المباح، فان خير الأمور هو التعلُّق بنواحي اللغة الشعرية أو اللغةِ الملغزة، خشية الوقوع في المحظور.

على هذا فنحن بازاء نصٍ لغويّ يهتم بالإبطان أكثر مما يهتم بالإبانة وبتفصيح خطابه، مما أدى إلى الأخذِ بالشعريّة كأداةٍ للتعبير الروائي. ففي رواية «وردة للوقت المغربي» ثمة كائنٌ نخبويّ يصارع المقدَّر المكتوب، وهو لا يملك أن ينزل إلى الميدان بغير سلاح الكلمة الشعرية. لأجل ذلك فإن السلاح الذي يمتشقه الكائن النُخبوي في صراعه مع ثنائية الحاكم والمحكوم التي تمتّنها عروةٌ وثقى لا تنفصم، يبقى الأوفر حظاً رغم كونه، في أحيان، سلاحاً مغلولاً وصدئاً ومطعوجاً. ومهما يكن من أمر الكلمةِ الشعرية التي يمتشقها أحمد المديني، فإن الدخول إلى حقل الرواية المغروس بالرموز والدلالات لا يتوفّر إلا من خلالها. فَلُغويّة النّص تجعلنا مسُوقين إلى الاعتناء، قبل أي شيء آخر بالمفردة، ذهاباً إلى أن ثمة دلالةً مخبوءة في جوفها. ليس مستحسناً التعويل على (الكلام المباح) الذي نصادفه حيناً بعد حين في مسرى الرواية. ينبغي أن نُيمِّم شطرَ المنطقة الوعرة حيث جملة من الدلالات تنتظرنا. قليلٌ من التفكيك للجهاز الدلاليّ (السيميائي) المنضوي في اللغة الشعرية يستدرجنا إلى مزيدٍ من الخوض في العالمِ الخاصِ للرواية. العالمُ الخاصُّ ليس إلا مجموعَ وجهاتِ النظَر والرؤى والتنظيرات يلقيها الكاتبُ في وجوهنا أولاها أن الطريق مسدود ولا سبيل إلى الفكاكٍ من قيودٍ تفرضها الجموعُ (= الجماهير) على الجماعة (= النخبة). فعندما الأولى تفرضُ خطابَها السلطويّ (ربما عَنَيْنا) بالسلطويّ هنا، سلطة العقل الخرافي الغبي) ليس أمام الثانية إلا أن ترطم رأسها بجدارٍ وتفجّه. إنها عبرةٌ نستمدّها من مُعاشٍ تنخرُه سوسةُ الخَبَل واللاعقل. ولكن العبرة الجديرة بأن نتنزعها من هذا العالم، كما يريد المؤلف، هي انتحارٌ شجاعٌ لمن أراد إليه سبيلاً. إذن الانتحار، ولا شيء غيره، بإمكانه أن يبدِّل الحالَ بحال. أن يجعل الانسان في هذه البقعة أو الرقعة من العالم، يستشعرُ كميةً من الأمان والحرية.

ولكنّ اين تقع هذه الرقعة؟ وهل من جغرافيا معينة تدور أحداث الرواية بين حدودها؟ لقد أخطأ الراوي عندما حدَّد جغرافيته الروائية ضمن الإطار المغربيّ. اكتفى بأنه غَرَّبَ حين كان مطلوباً أن يُشَرِّق أيضاً ما دام شرق العرب وغربهم يتآصران ويجتمعان على أمرٍ واحدٍ مفردٍ نستطيع أن ندمغه بدمغاتٍ عدة بينها: النفاق الفكري ـ السياسي ـ الاجتماعي، وبينها السلطة القمعية للخطاب الخرافي المناهض للعقل، وبينها السّحق المستمر، التفكيك المستمر لأوصال الكائن النخبوي من قبل الجموع الهائجة الشاردة المدوَّخة.

مهما يكن فإن أحمد المديني دقَّ عصا ترحاله في إحدى هذه المدن التي تتشابه، في هذا الوطن الذي يتشابه، وبين سكان كثيراً ما يتشابهون «وإن اختلفوا في السحنات ونِسَب التكرُّش ودرجة الانحناء أمام الشرطة». وبينما يحكي لنا عن هذه المدينة لا بد وأن نستشعر نزوعاً صوفيًّا لدى الكاتب. فهو طالما استعان بمفرداتٍ من المعجم الصوفي كالخشوع والقامات المحنيَّة والوجوه أو الجباه المعفَّرة بالتراب والعلامات وسطوع البرق والتحليق في الفضاءات العالية إلى غير ذلك من تعابير قلما نقع عليها خارج القاموس الصوفي.

لكنّ الصوفيَّة التي يعتنقها أحمد المديني (وهذا جانبٌ آخر) لا تمت بسبب إلى صوفيّة الحلاج أو السهرودري أو ابن عربي الذين كان تصوُّفُهم جسراً إلى الله، بل هي الصوفية التي تعبّر عن موقفٍ ماقتٍ للأنماط السائدة ورافضٍ لها. إنها، كما نستطيع أن نبرهن، تعبيرٌ عن الحرية، تحطيمٌ. لكل علاقةٍ مع خارجٍ (= مجتمع) تبذّل وبات ينطق بالعهر. دعونا نسمعه يتحدث عن هذا الموقف: «وجهُ الخلاف بيني وبين الخلق أجمعين حول الاستواء والتململ. فأنا لا أفهم أن الأرض كرويّة الشكل أو بيضاوية أو صفراء أو زعفرانية.

كما لا أفهم أن فيها عدداً من القارات وما لا حصر له من الأجناس والقبائل. في ديارنا توجدُ العشائر وحدها. زِد على هذا أن الصحارى والشوارع عندي سواء، وبَشَر الرماح والكلاشينكوف هم ذاتهم ما دامت ريحُ البلاهةِ تصفر في أدمغة الجميع» (ص ٦).

لنعُد إلى المدينة التي يجول الكاتب ـ البطل في أزقتها وشوارعها. لن نجرؤ، ابتداءً، على الإلماح بأن الكاتب يستضيفنا في مدينةٍ متخيَّلة عُمِّرت بعرق الذهن وكدِّه، بل هي المدينةُ العربية الجاهزة التي يجلوها لنا أحمد المديني ويزيح الستائر عن مشاهدها الحقيقية. لا يحدّها طولٌ ولا عرض، لا قربٌ ولا بُعد، لا شكل لها ولها كل الأشكال. بسبب ذلك لم يعُد أحدٌ فيها يأبه لأحد أو شيء سوى للحظةٍ معلومةٍ من دورة الليل والنهار. تسمعُ فيها صفارة إنذار. ربما أتت من المذياع أو الفضاء أو خرجت من الألياف أو ثقب المراحيض العمومية، «كما قد تقفز من حنجرة أحد المصلحين يتهدد الشباب وينذرهم مغبة الكفر والإلحاد والمروق والزواج من الأجنبيات وشرب البيرة واقتناء الكتب والملابس التي تفوح بالأفكار المستوردة والايديولوجيات الهدامة». وقبل أن يصل في وعيده إلى الدَّرْك الأسفل من جهنم تنطلقُ صفارة الإنذار «فيهبُّ السكان فزِعين فرحين ملوِّثين مهرولين ناحية الصوت. ويذكرُ بعضٌ عمن لم ينقرضوا، أو كما ظَهَر من حفرياتٍ كُشفت حديثاً، بأن الجرذان والجعران والزنابير، وما مشى في الأرض وحلَّق في السماء كان يهبُّ جهةَ الصوت، حتى إذا اجتمع الكل، واكتظت الأرض، وما بين الأرضِ والأرض، وما بينها والسماء، سطَعَ ضوءٌ كالبرق لا ترف له العيون، وهي خاشعة والقامات محنيّة، يُرى طيفٌ ولا يُرى، إذ من يجرؤ على النظر، فإذا كان الطيفُ يتوارى تُحسر كل الرؤوس، والوجوه معفَّرة بالتراب، فتُبصَمُ بعلامة، وويلٌ لمن ضاعت فيه أو منه العلامة» (ص ٩).

في هذه المدينة التي يحترفُ أهلُها الركوع للنبي والتسبيح بذكره لا يجد الكائن النُّخبويّ غير أن يثير حرباً لا هوادة فيها مع الجموع التي قررت الدَّوس على أملٍ ينعجقُ به صدره. إنه إذن، ومثلما دعوناه قبل قليل، الصراعُ بين الجموع والجماعة. الصراعُ، هنا، لا يسير بنفس الوجهة التي اتّخذها له في الخطاب العربي المعاصر لجهةِ كونه صراعاً بين سلطةٍ قمعيةٍ وبين جحافل من البشر دِيسَت كرامتُها وهدِر حقُّها، بل إن الكاتب هَبَط إلى الميدان كيما يخوض معركة مع هذه الجحافل أو الجموع المُتَمَسكنة نفسها على أنها السلطةُ القمعية الأخرى الموازية ـ ولكن بأكثر خطورة ـ لسلطةِ الحاكم. وإذا سُمِح لنا أن نُطلق على هذه الجموع لقباً آخر فليس غير العقلية الجماعيَّة ما يليقُ بها. العقليةُ الجماعيَّةُ تفرمُ لحمَ الخطابِ التنويري، تدوسه بالأقدام دون أن يرفّ لها جفن. هي الشر المستطير الذي يَرى إليه أحمد المديني أنه عائقٌ، فريدٌ من نوعيّته وطبيعته، نحو السير إلى الحرية والنهضة.

لا نغرب في التوقف عند هذا الحد بل القول إن العقلية الجماعية في ارتكابها الإثم اليومي، تجد دائماً من يُعينها ويشدّد من عزيمتها في المرجعية العليا التي يعزُّ عليها أن تحتلّ السماءَ وحدها دون أن يكون لها سيطرة على الأرض. لهذا كله فان الكائن النخبوي يصبح بين فكّي الكماشة: بين سلطةٍ تحتلها عقليةٌ جماعيَّة مستبدة وأخرى لحاكمٍ مستبد.

* * *

ولكنْ لندع هذا الجانب «الايديولوجي» في الرواية، ولنتجه قليلاً نحو الجانب الأكثر أهمية؛ نحو النَّص كبنيةٍ بذاتها. ما يقدمه إلينا أحمد المديني، كما اعتبرنا قبل قليل، إنما هو نصٌّ لغويّ. اللغةُ، في هذا الفعل الروائي، تكشفُ عن أجمل مفاتنها. نقول ذلك بينما نعلمُ المشاكل اللغوية التي يعانيها النص الروائي المغربي. فبالرغم من الحضور الدائم. والطاغي أحياناً، للبُعد الايديولوجي المضموني نجد أن ثمة شكلاً، أو بناءً، تنطبق عليه أهم مقومات النظر الشكلاني في التناول النقدي للرواية. سوف نتلمَّس شُبهَ ذلك في مقدرة الكاتب على حقن المُرسلة الكلاميّة بشحناتٍ نفسية متوالية. لنقرأ هذه الفقرة: «الذين شاهدوا تلك الليلة كانوا قلةً. والذين اقتيدوا كانوا من الكثرة بأن استحضروا لهم أعداداً غفيرةً من القوات والعسس وحَمَلَة الهراوات حتى تَغَطَّى بهم الأفق. ودمدمت الأرضُ ولكنْ القوم كانوا نياماً. ويذكر أحدُ الشهود الذين قدِّر لهم أن يشهدوا، من فجوةٍ في حائط، أنهم صنعوا ليلاً اضافوه إلى الليل ليحتجبوا. أطلقوا في الفضاء روائح وأصواتاً تُنيم كل مؤرق وتُخرِسُ كل سامع، وأنهم لم يسيِّجوا الأرضَ وحدها بل وطوَّقوا السماءَ بأسلاكٍ ووجوهٍ وتمائم. وحين اكتملتْ عدَّتهم وعديدُهم زحفوا مختلِطين بالليل ومحتجبين بالليلِ حاملين الليلَ إلى ليل الأمة» (ص ٨٣).

فلو خُيِّرتُ بين أن أتناول رواية أحمد المديني من جانبها الشكلانيّ أو من جانبها الآخر، المضمونيّ، لما ترددتُ في اختيار الأول حيث أن المفردة الروائيّة عنده على قدرٍ من التكثيف والتزخيم، مما أدّى إلى بلوغ البُعد الفني مداه الأقصى. فالكاتب يقبض جيداً على ناحية اللغة جاعلاً منها العمودَ الفقري لروايته. ولئن كانت لغته المتداعية، المنطلقة على السجية، تستسيغ المكوثَ في منطقة الشعر (ثمة أكثر من مقطع شعري في صلب النص) غير أن ذلك لن يقلّل، بنظرنا، من أهمية الفعل الروائي. إنه الفعلُ أو العمليةُ الكتابية التي تسعى إلى خلق حالةٍ حواريّةٍ بينها وبين المتلقّي. وما دام الأمر على هذا النحو، ودفعاً لمثل هذا الحوار، فليس على الكاتب إلا أنه يحفر طرقاً عدة؛ فأمامنا الطريق اللغويّ الصرف الذي يتصل بمنطقة الشعر. وأمامنا أيضاً الطريق الايديولوجي، ثم الطريق المتّصل بتلك البقعة من الشحنات النفسية المتوالية كل هذه الطرق تؤدّي إلى الطاحون، أي إلى فعل روائي متكاملٍ هدفه الأول والأخير إحداث رجّةٍ في حواس المتلقّي وإقناعه بما يريد قوله. وليس من بابٍ عجبٍ القول إن السَّهم الذي أطلقه أحمد المديني أصاب مرماه، وبدقة.